في جدل الثقافة والهوية"قراءة من منظور معاصر"

الأستاذة: الضاوية لسود

جامعة لعربي تبسي – تيسة –الجزائر

مقدمة:

تعدّ الهوية من أهم القضايا التي تحظى باهتمام كبير في فترة ما بعد الحداثة، باعتبارها الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الفرد والمجتمع، والكينونة التي تشكل الذات وفق مبادئ لها علاقة بالمكان والزمان والمكان، والوجود الذاتي؛ إذ تحدد ماهيته بالنسبة للآخر: من يكون؟

بالإضافة إلى الثقافة التي تعد نظاما روحيا وماديا ترتقي بالإنسان وهويته، محافظة بذلك على البنية الوجودية وعلى العلاقة الحضارية المفتوحة بينهما، لكن التفاعل المتناقض بين الثقافات والحضارات والتأثير بين الايجابية والسلبية خلق نوعا من التشتت والضياع لهذين المفهومين وأثر على وجودهما، مما أثر على الهوية خاصة الثقافية، و تعدد الثقافات الذي حاول أن يلغي الثقافة الأصلية.وظهور ما يعرف بالهوية الكوكبية التي تحاول اختزال كل الهويات في هوية واحدة، ومنه نتساءل : ما الثقافة؟ وما الهوية؟ ما العلاقة الجدلية بينهما؟ وما واقع كل واحدة منها في ظل سيطرة المعاصرة وتداخل الحضارات والثقافات؟

1–مدخل مفاهيمي:

قبل التطرق إلى العلاقة الجدلية بين الثقافة ،وواقع هذه التسميات في زمن ما بعد الحداثة والمعاصرة والخطر الذي يلاحقهما، يجب أولا الإحاطة بالمفهوم النظري لكل من: ثقافة، هوية. لما لهما من أهمية في مقاربة مجموعة من الأفكار المرتبطة بتفسير الإشكالية المطروحة في البحث.

أ–الثقافة:

لقد تمّ تقديم عدة دراسات ومفاهيم في هذا المصطلح ابتداء من المصطلح اللغوي الذي تناولته المعاجم اللغوية بالدراسة والتحليل فالجذر اللغوي لمصطلح ثقافة هو الفعل الثلاثي "ثَقِفَ" أو "ثَقُفَ" بمعنى حَذَق أو مَهَرَ أو فَطَنَ (أو فَطِنَ) أي صار حاذقاً ماهراً فطناً فهو "ثَقِفٌ"، وقد ثَقِفَ ثَقَفاً، و"ثَقَافَةً"، وثقَّف الشيءَ أقام المعوَجَّ منه وسواه، وثقَّف الإنسانَ أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه. ويرتبط الفعل "ثَقِف" بدلات ومعان أخرى قد تضيء[1]

وقد ورد في معجم لسان العرب في مادة ثقف أن:" ثقف الشيء ثقفا وثقافة وثُقوفة: حذقه، ورجل ثقِفٌ وثَقَفٌ: حاذق، فَهِمٌ. ثقفت الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت به"[2].

[1] ينظر معجم الوسيط، والمختار الصحاح: مادة ثقف.

[2] –ابن منظور: لسان العرب، ج1، دار المعارف، القاهرة– مصر، ص: 492.

لذا فالثقافة هي الظفر بالشيء وإصابته، ويؤكد هذا المعنى أكثر قوله تعالى:"ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذوا وقُتِّلوا تَقْتِيلا"[1].وقوله "واقتلوهم حيثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ"[2].

ومن منظور علم الاجتماع، يأخذ التعريف اللغوي السابق في التوسُّع والتعمُّق على يد علماء عديدين (جيرارد أودونيل، ماكس فيبر، ماركس، وغيرهم)، ليصبح تعريفاً اصطلاحياً يُشير إلى طريقة الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها لتكون مقبولةً من جميع أفراد الجماعة، وملائمةً لهم كمجموع، وهي طريقة تتضمَّن أساليب الإدارة وآلياتها، ونمط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، أو منظومة الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، وكذلك اللغة، ونمط العيش بما يتضمنه من مسكن ومأكل ومشرب ومن علاقات وأنظمة سلوك تؤسس التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين الوجود.

الثقافة، إذنْ، هي جماع الأنظمة المادية والروحية التي ابتكرها الإنسان لتحكم سلوكه فيما هو ذاهبٌ إلى الارتقاء بهويته وذاته ونمط حياته والإعلاء من شأن وجوده في الحياة عبر الانخراط في صيرورة هي الثابت الوحيد في هذه الحياة، وعبر الاحتفاظ بأبنية ثقافية تحملها اللغة إلى الأجيال اللاحقة كي تسكنها وتتولَّى تعديلها أو إعادة إنتاجها وفق حاجاتها وشروط تطورها[3].

انطلاقا من هذه المفاهيم فإن الثقافة هي مجموع المعارف المتعارف عليها اجتماعيا وطبيعيا.

ب–الهويّة:

تعدّ الهويّة من أهم المفاهيم والمبادئ التي تشكل المنظومة الوجودية للإنسان، لهذا فإن تقديم شامل وثابت لها يعد من أصعب الأمور التي تواجه الباحثين خاصة وأنها مفهوم زئبقي يصعب الإمساك بدلالة موحدة له، إذ يتراوح بين الثبات والتحوّل باعتبارها:"بنية متحولة باستمرار، ولكن هذا التحول على محاور ثابتة، تجمع بين ثلاثية هامة في حياة كل فرد، وهي، العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به ، والتراث الثقافي طويل المدى"[4].

لهذا فهذه المحاور الثابتة تحمل دلالات معينة تشكل وجود الإنسان وتميزه عن غيره من بني البشر في العالم ككل. وعليه فهي تعرف على أنّها "علاقة تطابق مع الذات عند شخص ما أو جماعة اجتماعية ما في جميع الأزمنة وفي جميع

[1]–سورة الأحزاب، الآية: 61.

[2]–سورة البقرة، الآية: 191.

[3]ينظر: عبد الرحمن بسيسو: الثقافة ومعركة الدفاع عن الهوية، غزة–فلسطين، أفريل2005.

[4]–محمود سمير منير: العولمة وعالم بلا هوية، دار الكلمة، المنصورة– مصر، ط1، 2000، ص:146

الأحوال، فهي تتعلق بكون شخص ما أو جماعة ما قادرا أو قادرة على الاستمرار في أن تكون ذاتها، وليس شخصا أو شيئا آخر"[1] .

وهي بهذا تعني الذّات أو الجوهر الأصل الثابت الذي يبرز كينونة الشخص والجماعة،لأنَّ الهوية هي القيم المطلقة والخالدة التي تسهمُ في صوغ حقيقة الإنسان الممكنة كحقيقةٍ تتأسَّس عليها إمكانية ذهابه في رحلة تحمله إلى كمالٍ مُحتمل؛ ولأنَّ الهُويةَ تُماثل النُّواة (أو البذرة) من حيث ممكنات تحوّلهما إلى شجرة أو نبتة، حيث كلاهما جوهرٌ كامنٌ قابلٌ للانخراط في صيرورةٍ تُحوّله، فإنَّ الهوية هي ثابتُ الإنسان وتحولاته، أو هي جوهره المجرَّد وتجلياته العينية الممكنة، والمتغايرة، والمتحوّلة في سياق صيرورة دائمة[2].

وتعرّف أيضا على أنها مجموعة الأنساق والرموز الثقافية التي تعبر عن عادات وتقاليد والموروث الثقافي لمجتمع ما أو قبيلة ما، وهذا ما ذهب إليه جون أوستن في تعريفة الذي يؤكد على هذه الأنساق وعلى فكرة التحول المستمر الذي تمتاز به، فهي:"ليست معطى ثابتا متعارف عليه، وإنما هي في تحول متواصل.إنها أمر يعتمد على الصيرورة، مثلما يعتمد على الكينونة؛ أمر يتصل بالمستقبل بقدر ما يتصل بالماضي. إنها ليست شيئا كائنا من قبل،فيتخطى حدود المكان والزمان والتاريخ والثقافة؛ ولكنها مثل كل شيء تاريخي، في تحول مستمر"[3].

ولا تقتصر الهوية عند نمط واحد فقط بل تتجاوزه إلى أنماط وأنواع مختلفة مثل الهوية : القومية، الهوية الشخصية، الهوية الثقافية؛ هذه الأخيرة التي تعد بمثابة الهوية الجامعة التي تحفظ الجانب الثقافي لكل مجتمع.

وانطلاقا من هذه المفاهيم سنحاول تحديد العلاقة الجدلية بين الثقافة والهوية وخاصة الهوية الثقافية من خلال العنوان الآتي.

2-العلاقة بين الثقافة والهوية:

إنّ الحكم بالجدل على طبيعة العلاقة بين الثقافة والهوية، مردّه إلى التباين القائم بينهما من خلال ما نراه في ثنائية الهوية (الثابت) والثقافة (المتغير) فثوابت هويتنا العربية مثلا {نقصد بالثوابت كل ما أسهم في تكوين الهوية من لغة ودين، وتاريخ وذاكرة جماعية كالعادات والأعراف,..}، هي في حال جدل دائم مع المتغيرات التي تجسدها الثقافة سواء ما تعلق بتداعيات العولمة أو ما هو تحت طائلة ما بعدية الحداثة، إذ تُطرح تساؤلات عديدة كلّما جدّ جديد ثقافي محوره الخوف على هويتنا وهو سؤال جوهري يفتح لنا آفاقا للبحث في ضرورة مسايرة جديد الثقافة بشكل نحافظ فيه على ثوابتنا لا بالشكل الذي يجعلنا ننزاح عنها، خصوصا في وقتنا الراهن الذي جمع لنا متفرقات الثقافات ويسّر لنا إمكانية استخدامها على كافة الأصعدة، فأضحى العالم قرية صغيرة بفضل تكنولوجيا المعلومات

[1] -طوني بنييت وآخرون: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط1، 2010، ص:700.

[2] ينظر: عبد الرحمن بسيسو:الثقافة ومعركة الدفاع عن الهوية.

[3] -منير الفاضل: الذاتية وسياسات الهويّة العربية والمهاجر العربي في رواية انجاز العربي لديانا أبي جابر "العولمة والنظرية الأدبية"، ص:232

وما تتيحه لمستخدميها من نزع جميع الفوارق وجعلهم على مستوى واحد في استعمالها، وهي باب من أبواب الثقافة يطرح جدلا إذا ما نظرنا على تأثيراته على هويتنا، وهو جدل غير منتهٍ لأنّ الثقافة تحمل الجديد والمثير وفي كلّ مرة علينا أن نضع تخوفاتنا من هذا الجديد وكيف نتقبله، وما آثاره، وإلى أي مدى يحمل إلينا نفعا؟... وغيرها من الأسئلة التي تعبر عن جدلية العلاقة بين الثابت والمتغيّر أي بين (الهوية/الثقافة).

خاتمة:

إنّ الحديث لا يكاد ينتهي بخصوص الهوية والثقافة، إذ يُشكل موضع بحث دسم يدنو منه الباحث ليتمكن من رسم صورة تقريبية عن الواقع الذي يحياه الفرد بين ثوابت شبّ وشاب على مبادئها، وبين مستجدات تطال ثوابته وتحاول لو تنهش وتُغيّر ما فيها، وهذا ما نستشفه ممّا سبق من كون الجدل بين الثقافة والهوية جدل يدعونا لضرورة معاينة تخوفاتنا وفي الحين نفسه ضرورة المحافظة على هويتنا من تداعيات الثقافة والعولمة.